

الشعر الحر في اللغة العربية: دراسة تحليلية

Free verse in Arabic language: A research analysis

حافظ محمد بادشاهⁱⁱحيات اللهⁱ

Abstract

Free verse (Ār: āl-shī'r āl-ḥūrr) was the most successful metrical experiment in twentieth-century of Arabic poetry. The ideology of free verse in Arabic language were discovered and popularized by two Īrāqī Poets, Bādār Shākīr Āl Sāyyāb & Nāzīk Āl Mālātkā after World War II, they are considered unanimously as to be pioneers of free verse poetry in Arabic language. This research paper discusses the emergence of free verse in Arabic literature. The paper also throws lights on the motives and factors which led to its composition. At the same time the role above mentioned two pioneers in the development and propagation of free verse poetry. No doubt that the emergence of free verse marked a new era of Arabic poetry which changed the set pattern of rhyme & assonance. The followers of this pattern or school of thought are basically giving more priority & preference to the ideas, notion & concept rather than it melody, hymn & chant. The uniformity of the rhyme disappears in the new "Qāsīdāh" and its place a number of varieties of liberal rhymes appears which do not insist on the same rhyming sound at the end of every line. The new style of rhyme represents the zenith at which a musical sequence could be brought to an end. In this paper the free verse in Arabic literature shall be discussed in detail.

Key Words: Free verse, Arabic Poetry, Literature

من المعلوم أنّ الشعر ديوان العرب. وقد كان إهتمام العرب بالشاعر قديماً أكثر من إهتمامهم بالكاتب، وذلك بسبب حاجتهم إلى الشاعر. وقد عبّروا عن هذا الإهتمام بالشعر والشاعر بطرق مختلفة في أزمنة مختلفة. ولذلك نرى أنّ مفاهيم الشعرية كانت مختلفةً عندهم باختلاف المراحل التاريخية وذلك حسب تطور شروط الشعرية وحسب الأحوال الإقتصادية والسياسية والإجتماعية والثقافية. يقول أحمد بزون في كتابه "قصيدة النثر": "من المعلوم أنّ مفهوم الشعر مُرتبطٌ بحياة الإنسان وليس مُنفصلاً عمّا يجرى من تحديد في المفاهيم الفلسفية

i محاضر و طالب الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها الجامعة الوطنية للغات الحديثة، اسلام آباد

ii استاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها الجامعة الوطنية للغات الحديثة، اسلام آباد

والفكرية والسياسية والاجتماعية".¹ فلذلك نرى أنّ مفاهيم الشعرية منذ الزمن القديم مرتبط بحياة الإنسانية وليست منفصلة عنه.

في العصور الأولى أُستعملت الشعر لمعارف قيم الإنسانية المختلفة من حيث أنه قيمة معرفية. ففي تلك البيئة كان الشاعر يُعتبر الحكيم والمعلم ورجلٌ مثقّفٌ، ولكن عندما انفصلت العلوم إلى ميادين شتى، ضاقت دائرة الشعر أيضاً تبعاً لذلك. فبدأت تكتب بعض الفنون الأخرى مثلاً المسرحية والملمحة التي كانت تكتب بشكل الشعر بدأت بشكل النثر في الغالب، والتي حصرت فيما بعد الجانب الغنائي للشعر. يقول حيات الله في أطروحته الدكتوراة "الشعر الحر في اللغة العربية واللغة الأردنية: "ومهد هذا بظهور مفهومًا جديدًا للشعر الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وذلك بظهور الإتجاه الرومانسية وبتركيزها على الذات المبدعة مقياسًا للفن. وكذلك بظهور الفنون النثرية الأخرى مثل فن القصة القصيرة وفن الرواية وفن السيرة الذاتية، فهذه الفنون سببت لتضيق مجال الشعر العربي قبله أن كان متسعًا وشاملاً للأدب كلّ في العصر اليوناني".²

ومما لا شك فيه أنّ المفاهيم الأدبية قد تغيّرت بتعدد المكان والزمان والمذاهب الأدبية، حتى في بعض الأحيان في مدرسة واحدة تتغير مفاهيمه، وهذا الشيء قد ندركه عند أصحاب الشعر العربي الحر بالتأكيد. فمن الأدباء المعاصرين مثل عبدالعزيز المقالح برأي أنّ المقاييس الشعرية متطورة، وليس من الضروري أنّ المفاهيم الخاصة يصلح لمجتمع لا يصلح لمجتمع آخر إلا بالضرورة.³ وعن هذا يقول مدحت الجيار: "إنّ البحث عن حدٍ جامع مانع للشعر أمرٌ صعبٌ لأنّ الشعر في الحقيقة جوهرٌ وهو ليس مظهرًا أو ملامح خارجية فحسب. فنحن لا نصف القصيدة أو جوانب منها وإنما نبحث عن الجامع المشترك للقصائد الشعرية، الخصائص النوعية التي تميزه من النثر عبر إختلاف الأزمنة والأمكنة".⁴

تعريف الشعر لغةً واصطلاحًا

كما ذكرت آنفًا بأنّ هناك الإختلاف بين الأدباء والنقاد في مفهوم الشعر وتعريفه وذلك بسبب الظروف والأحوال المختلفة التي توجد الشعراء، ولذلك وضعوا للشعر تعاريف عديدة وسطروا في هذا الأمر آراء كثيرة، وكلّ واحد منهم يدعي بأنّ تعريفه أصحّ في مفهوم الشعر.

تعريف الشعر لغةً

هناك تعريفات عديدة للشعر، ولكن نكتفي بتعريف المعجم الوسيط، فكلمة "شعر من فعل ثلاثي (شَعَرَ - شَعْرًا) قال الشِعْرُ، ويقال: شَعَرَ له: قال له شِعْرًا. وشعر به شعورًا: أحسن به وعلم. وشعر فلانًا: غلبه في الشّعْر".⁵

تعريف الشعر في الإصطلاح

إصطلاحًا الشعر هو ما قاله قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، فعرف الشعر بأنه: "كلامٌ موزونٌ ومقفىٌ يدلُّ على معنى".⁶

والشعر في الحقيقة لغة التعبير عن ما يشعر به الإنسان، وفي رأي الأستاذ عدنان قاسم "أنّ الشعر هو تعبير عن الوجدان، وهو تعبيرٌ عمّا يجتليج في أحاسيس ومشاعر الشاعر".⁷

أما الدكتور شوقي ضيف فهو يرى بأنّ: "الشعر هو ليس عملاً سهلاً ساذجاً كما يعتقد كثير من الناس، بل هو عمل صعب ومعقّد إلى غاية التعقيد، وقد جعله أحد الصناعات الخاصة، وهو جاء بالدليل بأنّ كلمة "الشاعر" معناها لدى اليونان القدماء (الصانع)".⁸ ولذلك نرى أنّ العرب كانوا يقرنون فن الشعر بالصناعات والفنون الأخرى المرتبطة بحياة الإنسانية مثلاً فنّ نحتٍ وتصويرٍ ورقصٍ وموسيقى.

كان الشعر موجوداً منذ الزمن القديم في كل القبائل البدائية وأمم المتحضرة، ولكنّ من حيث الفن المستقل، فلم نجده إلا في اللغة العربية. ومراد من الفن الكامل هو الفن الذي توجد له القواعد والأصول المضبوطة، وكل هذه الشروط كانت توجد في الشعر العربي القديم حسب قوانين الأوزان والقوافي والأعراس التي تفرّق بين الشعر والنثر.

ومن الأحسن بأنني أشير هنا إلى قضية أخرى، وهي قضية لعدم الوجود المقاييس وقوانين ثابتة لفنّ الشعر. فهناك بعض القوانين مشتركة محددة ينفي بعضها لبعض، والشاعر ولو يحاول التحديد في هذه القوانين لكنّ لا بدّ يكون محتفظاً ببعض هذه القوانين المرتبطة بفن الشعر ومرتبطةً بالقارئ والسامع.

وعدم التغيير في هذه القوانين الشعرية ليست معناها أنّ هذه القوانين نهائية وثابتة ولا يقبل أية نوع من التغيير أبداً، بل حقيقة الأمر أنّ هذه القوانين يمكن تغييرها وذلك حسب الأحوال والظروف في البيئة المحيطة، وقد أشار أدونيس إلى هذا الأمر بأنّ: "الشعر لا يمكن تحديده، ذلك أنّ التحديد يخضع لقواعد والشعر حرٌّ مستمرٌّ للقواعد والمقاييس".⁹ فمجال الشعر دائماً مفتوحاً للثورة المستمرة، وبمرور الزمن تأتي فيها التغييرات.

الشاعر والصحفي اللبناني يوسف الخال أيضاً يتفق في هذا الرأي مع أدونيس "بأنّ الشعر في الحقيقة يصنع قوانينه بنفسه وهو لا يخضع لأي مقاييس سابقة عليه. وبهذا السبب الشاعر الحر عنده الحرية وهو الذي يضع قوانينه بنفسه وهو في الحقيقة فوق القوانين الشعرية وليست القوانين فوقه. وبالتالي هو الذي يضع القوانين والنظام ولا يضعه النظام".¹⁰ و من المعلوم أنّ الخليل بن احمد الفراهيدي هو الذي حاول أن يستنبط القوانين الشعرية. فعند يوسف الخال الشاعر الأصيل المدع هو الشخص الذي يضع نظامه الشعري بنفسه، ثم الآخرون يتابعونه في هذا القانون، فإما يُقبل وإما يُرفض.¹¹

لكنّ هذه الحقيقة ثابتة معلومة أنّ النظام الشعري الجديد تابعٌ للنظام الشعري القديم ولا يخرج عنه كليةً. والوجود الرابط بين الشعر القديم والحديث ضروريٌّ جداً، ومهما يحاول الشاعر لكنّه لا يمكن له أن يخرج من هذا النظام الشعري المتداول، لأنّ الشاعر والشعر كلاهما مرتبطان في الحقيقة بمجتمع خاص وكذلك بالثقافة المعينة، والشاعر يكتب للمجتمع وللثقافة التي هو يسكن فيها. فالخروج التام الكلي من النص القديم للنص الجديد هونفي له، بمعنى أنّ الشعر يجب بعضه بعضاً. ومن ثمّ نستطيع أن نقول بأنّ الثورة الجديدة في الشعر العربي بشكل

الشعر الحر لا تمندف لإلغاء المقاييس القديمة كلياً، بل الشعر الحر قادم الموسيقى، والقافية، واللغة الشعرية، والصورة الشعرية الجديدة، وهي في الحقيقة التقدم إلى الأمام في فهم وفي صناعة القصيدة العربية، وبهذا السبب المفهوم الشعري لدى هؤلاء مختلفاً عن المفهوم القديم له.

نحن نعرف بأن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى إلى العصر الحديث والعصر المعاصر إتخذ الأساليب المختلفة، وكان لكل عصر طريقة خاصة في الشعر وأسلوب منفرد لمواجهة وللإيضاح مشاكل ذلك العصر. يقول الدكتور شوقي ضيف "بأنّ الأساليب الشعرية تطورت أثناء هذا العصر تطوراً واسعاً".¹² أي إلى حد كبير.

ولعلّ في العصور الأولى الشعر العربي الفصيح لم يزدهر كما أنّه إزدهر في العصر الحديث وذلك بسبب ثلاثة الأسباب الرئيسية، أولاً أنّ الشعر العربي أصبح الترجمان القوي في هذا الزمن لمشاعر الشعوب العربية وخاصة في نزعاتهم الوطنية والقومية، وقد استعمله الشعب العربي كسلاحٍ حادٍ ضدّ المستعمرين، إلى أن أخرجوهم من ديار العرب. والسبب الثاني هو أنّ الشعر العربي وجد الوسائل الجديدة لم تكن معروفة من قبل، وساعدت هذه الوسائل في نشرٍ وفي إتساعٍ للشعر العربي، ومن هذه الوسائل مثلاً الطباعة، والصحافة المطبوعة والمرئية، وكذلك الأدوات الأخرى الإعلامية الحديثة، التي جعلت الشعر متفوّراً عند كل واحد. والسبب الثالث هو التعليم، فالتعليم أيضاً لعب دوراً هاماً في إتساعٍ وفي إنتشار الشعر العربي الحديث، فالتعليم في الزمن الماضي كما رأينا أنه غير منتشر، لكنّ نرى أنّ التعليم في العصر الحديث متوفراً، فنرى أنّ على الأقل التعليم الابتدائي مثلاً منتشراً في جميع القرى، وكذلك التعليم الثانوي في المدن الكبيرة والصغيرة، وفي نفس الوقت توجد معاهد اللغة العربية في كثير من الجامعات المحلية والعالمية، والتي سببت لإنتشار اللغة العربية وآدابها وبالتالي في إنتشار أدبه - شعراً ونثراً.

وإذا نظر إلى الأنواع المختلفة للشعر العربي فنرى بأن من أهم أنواع الشعرية العربية هي: القصيدة، والقطعة، والمؤشحات، والزجل، والدوبيت، المواليا، القوما، والشعر الحر. وتكتب كل هذه الأنواع الشعرية المذكورة في ستة عشر بحراً، وهي: البسيط، والرجز، والخفيف، والمديد، والكامل، والهزج، والطويل، والرمل، والمجتث، والسريع، والمنسرح، والمضارع، والمقتضب، والوافر، والمتقارب، والمتدارك (المحدث). ولكل هذه البحور الزحافات والعلل والتفاعيل المختلفة، كما أستعملت كل هذه البحور للأغراض والأهداف المختلفة.

وفي هذا البحث سأركز فقط على الشعر الحر ولا أتكلم عن الأنواع الشعرية العربية الأخرى. ففي الشعر الحر الشاعر لا يلتزم بعدد من التفعيلات كما ذكرت آنفاً، فهو يزيد وينقص في هذه التفعيلات حسب ما تحتاج إليها وحسب ما يناسب لعواطفه وخيالاته وكذلك حسب ضرورته الشعرية. و فقط هذه الإباحة الوحيدة أعطت للشاعر الحرية الكبيرة، والذي ما كان يجد الشاعر في شكل قديم ذي حدود ضيقة قديمة، فالآن أصبح يمكن له أن يتكلم عن الموضوعات والمشاعر الذي ما كان يستطيع أن يتكلم عنها بسبب قيود الأوزان والقوافي والبحور. ولذلك أصبح التعريف للشعر الحر هو كما قالت رائدة هذا النوع الشعري نازك الملائكة هو: أنّ "الشعر الحر هو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت وإنما يصح أن يتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر ويكون هذا التغيير وفق قانون عروضي يتحكم فيه".¹³ وفي رأي نازك أنّ الشعر في الحقيقة مثل الحياة، ويصح عليها قول

برنارد شو الذي يقول: "أنّ" اللاقاعدة هي القاعدة الذهبية".¹⁴ ففي الشعر الحر تأتي القافية دونما تتوقع، ويطول ويقصر الشاعر أبياته الشعرية حسبما يريد ويحتاج.

وهكذا الرائد الآخر للشعر الحر بدر شاكر السياب أيضًا يشير لنفس القضية في مقدمة مجموعته "أساطير"، بأنه وجد و إستهلم الموسيقى الجديدة أي الشعر الحر بمطالعة وبقراءة الأدب الإنجليزي. فيقول: "بأنني قد رأيت أنّ يمكن لنا أن نحافظ على إنسجام الموسيقى والنغمة في القصيدة ولو باختلاف موسيقى الأبيات، وهذا يمكن باستعمال بعض البحور العربية ذات النفايع الكاملة على الرغم أن يختلف عدد النفايع من بيت إلى بيت آخر".¹⁵ وبهذه الطريقة نستطيع أن نقول أنّ بدر شاكر السياب كان في رأي عند كثير من الأدباء الآخرين أنّ جزور الشعر الحر قد وجدت من الغرب، ولذلك هناك جماعة من العلماء عندهم هذا الموقف بأنّ الشعر الحر قد ظهر في أوروبا، وهو الشعر محرراً من قيود القافية، وأول من نظمه "لافونتين" على لسان الحيوان.¹⁶ وفي الحقيقة محاولة الشعر الحر كانت أكثر نجاحاً من كل محاولات سابقة مثل محاولة الشعر المرسل، أو محاولة نظام المقطوعات أو الزجل الخ، لكنّ محاولة الشعر الحر قد حطمت كل القيود المفروضة للقصيدة العربية القديمة وانتشرت إنتشاراً واسعاً في الدول العربية، وبهذه الطريقة خرجت القصيدة العربية من حالة الجمود الى حالة حالة الحيوية.

ومن الرواد الذين ساهموا في تطوير وإرساء قواعد الشعر الحر منهم مثلاً، من العراق نازك الملائكة، بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري، ومن لبنان يوسف الخال وعلي أحمد سعيد (أدونيس)، ومن الفلسطينيين محمود درويش وسميح القاسم، ومن مصر أحمد عبدالمعطي الحجازي، وصلاح عبدالصبور ومن السودان محمد الفيتوري وغيرهم كثيرون ساهموا في تطوير الشعر الحر.

بداية الشعر الحر في العصر الحديث

الشعر العربي شهد في تاريخه عدد من المحاولات للتجديد في القافية وللخروج في قيود من الشعر التقليدية. وكل هذه المحاولات كانت مرتبطة بالتطورات التي كانت تجري المجتمع العربي، ومن بين هذه المحاولات المشهورة مثلاً محاولة أبو العتاهية، ومحاولة الشعراء الأندلسيين بطريقة فن المؤشحات، ولهذا المحاولات كانت أثراً عظيماً في حركة تجديد الشعر العربي.¹⁷

تقول نازك الملائكة عن بدايات حركة الشعر الحرّ بهذه الألفاظ: "كانت بداية حركة الشعر الحر سنة 1947م في العراق، ومن العراق، بل من بغداد نفسها، وزحفت هذه الحركة وإمتدت حتى غمرت الوطن العربي كله، وكادت بسبب الذين استجابوا لها، تحرف أساليب شعرنا الأخرى جميعاً، وكانت أولى قصيدة حرة الوزن تنشر قصيدتي المعنونة "الكوليرا"، ثم قصيدة "هل كان حباً" لبدر شاكر السياب من ديوانه أزهار ذابلة، وكلا القصيدتين نشرتا في عام 1947م".¹⁸

ومن هنا نلمس أنّ كان هناك الإختلاف في حق الريادة بين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، فبعض الناس يرون أنّ قصيدة "الكوليرا" هي كانت أول قصيدة التي كتبت بطريقة الشعر الحر، وعند بعض قصيدة بدر شاكر السياب "هل كان حبًا"، وله حق الريادة، ومن هنا نشأت نوع من الجدال التي سجّلته الدراسات الأدبية، (وفي الحقيقة هذه القضية أيضًا تحتاج إلى مزيد من البحث و التحقيق).

ورغم من هذا الإختلاف في حق الريادة إلا أنّ الهدف كان واحدًا ومشتريًا بينهما، وكل المحاولات التي سبقتها لم تنجح إلى حدٍ كاملٍ كما نجحت هذه المحاولة، وهذه المحاولة نقلت الشعر العربي من حالة الجمود إلى حالة أكثر حيوية. والشاعر العربي المعاصر الآن يستطيع أن يوضح عن أفكاره وآراءه في قالب الشعر الحر بأكثر الوضوح والسهولة.

دوافع الشعر الحر

الأبحاث الأدبية والنقدية المختلفة والعديدة تدلّ على هذا الأمر بأن الشعر الحر لم ينشأ من فراغ، بل كانت لها بعض الأسباب والدوافع، ومن هذه العوامل التي ساعدت في تنمية الشعر الحر وفي تطويره فمنها مثلًا العوامل الاجتماعية، والنفسية، والوضعية، والسياسية مع بعض العوامل الأخرى المنبثقة من العوامل المذكورة. ويؤكد الدكتور محمد النويهي هذا الأمر بأنّ الدافع الحقيقي إلى نشأة وإستعمال هذا النوع الشعري هو يحتاج رغبة الشاعر في إستخدام التجربة الشعرية مع الحالة النفسية والعاطفية للشاعر، وذلك لسبب أن يأتي التآلف والإيقاع والنغم مع المشاعر الذاتية التي يشعر بها الشاعر وفي نفس الوقت تأتي وحدة موسيقية أيضًا.¹⁹ وفي الحقيقة إستطاع الشاعر الحر أن يتمثل مشاعره وأحاسيسه الذاتية بطريقة جيدة وطيبة.

مميزات الشعر الحر:

تتميز الشعر الحر بجوانب عديدة، وأشار إلى هذه المميزات الشاعر مصطفى راشد في كتابه ديوان شعر العربي الحر بأنّ قصيدة الشعر الحر تتميز بخصائص أسلوبية فحسب، وكذلك اعتمدت على الوحدة العضوية أيضًا، وتوجد فيها الإمتزاج بين الشكل والمضمون، فستعمل البحور، والقوافي والتفعيلات كلها لخدمة الموضوع، فيستعمل الشاعر التفعيلة الخاصة والموسيقى الخاصة بمساعدة الألفاظ المناسبة للإظهار مشاعره وعواطفه.²⁰ (بتصرف) فني رأي شعراء الشعر الحر أنّ تحرير القصيدة العربية من القيود السابقة جعلتها أكثر مرونة وحيوية وتجاوبًا، والشعر الحر منح للشاعر أكثر الحرية والفرصة في التعبير بما يشعر به من تجاربه الشعورية، وكذلك وجد الشاعر حرية إختيار الموضوع حسبما يريد وحسبما يشاء. وهذا هو السبب بأننا نرى في العصر المعاصر ميلان الشعراء لهذا النوع الجديد أكثر فأكثر، فهم يستعملون قصيدة الشعر الحر للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم.

إمكانيات ومستقبل الشعر الحر

رغم على أن الشعر الحر كان في بداية الأمر واجه المشاكل الكثيرة لكنّ بمرور الزمن أصبح نوعًا مشهورًا لدى الشعراء. رائدة الشعر الحر نازك الملائكة كانت في رأيي أنّ الشعر الحر سوف تعطي للشعراء حرية في إختيار

الموضوعات والأوزان والبحور الملائمة حسب حاجاتهم ومتطلباتهم، وأن الأوزان الخليلية في الحقيقة تقيّد الشاعر في اختيار الأوزان المحدّدة، ورأينا خلال خبرتنا أنّ كل الأوزان لا تصلح لكل الموضوعات.

تقول نازك الملائكة: "أنا أتنبأ بأنّ حركة الشعر الحرّ ستصل إلى نقطة الجزر في السنين القادمة - ولسوف يرتد عنها أكثر الذين إستجابوا لها خلال السنين العشر الماضية. على أنّ ذلك لا يعني أنّها ستموت. وإنما سيبقى الشعر الحر قائماً ما قام الشعر العربي وما لبثت العواطف الإنسانية".²¹

وهكذا من المعاصرين الكاتب الأردني الأستاذ الدكتور روض ندم من الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد أيضاً في رأيي بأن الشعر الحر وجد مكاناً هاماً في الأدب المعاصر، ووجد هذا المكان بعد الجهد الطويل، وحالياً يعتبر الشعر الحر ممثلاً كبيراً للشعر الجديد في العالم.²² وهو في رأيي بأن الشعر العمودي رغم أنّ الناس يحبونه وهو ما زال منتشرًا إلى حدٍ كبير، لكنّ من الضروري أن يكون لدى الناس التعارف على الشعر الحر، ويُدخل ويُدرس هذا النوع الأدبي في المناهج الدراسية، وكذلك الإعلام أيضاً يلعب بدوره في تشجيع هذا الذوق الأدبي والشعري في الناس. والآن سأخذ نازك الملائكة وبدر شاكر السياب نموذجًا للشعر الحر في هذه المقالة، لأنهما يعتبران رائدان للشعر الحرّ في العالم العربي

نازك الملائكة

السيدة نازك الملائكة من أوائل من صاغوا الشعر الحر، ولذلك لها منزلة عالية رفيعة بين الشعراء. وهي في الحقيقة من السابقين الأولين في مجال الشعر الحر. وهي التي خرجت الشعر العربي من طول اليأس والحسرة على عمقه وإجدابه. ومادام اللغة العربية وأدبها موجودة سيبقى ذكرها، وخاصة بسبب إسهاماتها وخدماتها للشعر العربي. ولذلك واجب علينا - ونحن نحمل في قلوبنا تقديرًا وتشريفًا لهذه الشاعرة العظيمة - بأن لا بدّ نذكر حياتها، أفكارها، إسهاماتها وآرائها النقدية.

إسم الشاعرة وولادتها

"نازك صادق جعفر الملائكة" المشهورة بنازك الملائكة، وُلدت في سنة 1923 (محرم 1342 هجرية).²³ وهي تروي في كتابها يغير ألوانه البحر: "ولدت في بغداد في 23 من شهر آب أغسطس سنة 1923 م وكنت كبرى إخوتي وهم: أربع بنات وولدان".²⁴

أسرتها ودراساتها

نشأت نازك الملائكة في الأسرة العلمية، أمها سلمى عبدالرزاق المشهورة بأمّ نزار الملائكة أيضًا كانت تنظم الشعر في الجلات والصحف العراقية المختلفة، وأبوها صادق الملائكة كان مدرسًا، وكان يدرّس النحو على مستوى الثانويات في العراق، وكان له خبرة عميقة و واسعة في اللغة العربية الفصيحة، فترك المؤلفات كثيرة من أهمها مثلًا موسوعة "دائرة معارف الناس"، وهذه الموسوعة في عشرون مجلدًا وقد إشتغل في كتابتها طيل حياته.²⁵ يقول أحمد قيش بأنّ هذه الأسرة قد أتاحت لها النشأة ما لم يتيح لغيرها".²⁶ وعندما كانت عمرها خمس سنوات

أُرسلت إلى إحدى رياض الأطفال الحكومية، وهي تتذكر عن هذه الأيام كتركيزات جميلة في حياتها.²⁷ تخرجت نازك من دارالمعلمين سنة 1944م بمرتبة الإمتياز، والتي كانت تعتبر أعلى درجة في ذلك الوقت.

أعمالها الشعرية والنثرية

لنازك الملائكة الأعمال النثرية والشعرية، ولا شك أنّها قد تعتبر من أهم الشعاعرات العربيات من القرن العشرين وذلك لتمييزها ولجمالها في أعمالها الشعرية والنثرية. تقول نازك الملائكة في كتابها ديوان نازك الملائكة بأنّني نظّمت القصيدة الأولى في عام 1945م، وكانت آنذاك عمري فقط إثنين وعشرين سنة.²⁸

ونجد لها دواوين عديدة منها مثلاً: ديوان عاشقة الليل (عام ألف تسعمائة وسبعة وأربعين)، وديوان شظايا ورماد (عام ألف تسعمائة وتسعة وأربعين)، كذلك ديوان مأساة الحياة وأغنية الإنسان، ثم ديوان قرارة الموجه (عام ألف تسعمائة وسبعة وخمسين)، وكذلك ديوان يغيّر ألوانه البحر، وديوان شجرة القمر.²⁹

شاعريتها

كانت نازك الملائكة شاعرة كبيرة ورائدةً ومجددةً في تكتيك الشعر العربي. أشعارها مليئة بالأحاسيس المفرطة وبالآلم الحاد. يقول د. أحمد قيش على شاعريتها: "إنه شعر امرأة من الشرق أحبّت أن تعيش وأن تحيا وأن تحب. وأن تحقق ما تصوّرتها في فجر عمرها عن غدٍ موعود فلما أدركت رأّت الحياة على عكس ما تصوّرت واشتهت. رأّت فيها الصرامة والقيود وألف سد من الكبت والتضييق فأصبحت بخيبة أمل مريرة".³⁰

الموضوعات الشعرية لنازك الملائكة

نجد في شعرها موضوعات عديدة ومختلفة، من بينها مثلاً موضوع: الشعر الوطني، والرثاء، والمدح، ومأساة الحياة، التشاؤم واليأس، والحزن، وقصائد الحب، وقصائد الفرح والسعادة، وذكريات، وكذلك لها بعض قصائد الطفولة أيضاً.

الشعر الحر عند نازك الملائكة

نازك الملائكة رائدة الشعر الحر، وهي من الشعراء الأولين التي تمردت على الشعر العربي القديم وخاصةً على الشعر العمودي التقليدي، وهي كتبت الشعر التفعيلي الخالية من القافية والريفي في أول مرّة في تاريخ الشعر العربي³¹ عددٌ كبيرٌ من الأدباء والنقاد يعتبرون نازك الملائكة كشاعرة الأولى التي قد كتبت حول الشعر الحر في عام 1947م، وكانت قصيدتها "الكوليرا" بدايات للشعر الحرّ في الآداب العربية. تقول نازك الملائكة في كتابها الشعر العربي المعاصر: "وكانت أول قصيدة حرّة الوزن تنشر قصيدي المعونة (الكوليرا) وهي من الوزن المتدارك. فنازك الملائكة تؤكد في كتابها الشعر العربي المعاصر وكتابتها الأخرى أنّها لا سواها أول من بدأ بكتابة الشعر الحر أن البداية كانت قصيدتها (الكوليرا) المكتوبة والمنشورة في سنة 1947م".³²

تؤمن نازك الملائكة بأنّ الشعر الحر لا يخرج بكامله عن قوانين العروض والأوزان التقليدية، تلك القوانين التي وضعها خليل بن أحمد الفراهيدي. وهي تتأكد هذا الأمر في كتابها بقولها أنّ علينا أن نفهم أنّ الشعر الحر هو ليس الخروج الكامل عن تلك القوانين العروضية التي وضعها خليل بن أحمد الفراهيدي، بل هو خاضع له عن طريق الزحاف، والعلل، والمشطور، والمجزوء والضروب... الخ.³³

وبهذه الطريقة قدّمت الشاعرة نازك الملائكة أمام الناس النوع الجديد للشعر العربي، وكانت في رأيي بأنّ هذه المحاولة الجديدة متفردة من المحاولات السابقة لتجديد الشعر.

القصيدة الأولى الحرّة

النموذج الأول للشعر الحر الذي كتبه نازك الملائكة في الشعر الحر هي "الكوليرا"، وهذه القصيدة كُتبت بعد إن إنتشر وباء الكوليرا أو الهيضة، والتي سببت لموت آلاف من الناس في بلدها الشقيق العراق.³⁴

وها هو أمامكم جزءٌ من تلك القصيدة المشهورة:

سكن الليل
أصغ إلى وقع صدى الأناث
في عمق الظلمة تحت الصمت على الأموات
صرخاتٌ تعلو تضطرب
حزنٌ يتدفق يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهات
في كلِّ فؤادٍ غليانُ
في الكوخ الساكن أحزانُ
في كلِّ مكانٍ روحٌ تفرح في الظلمات
في كلِّ مكانٍ يبكي الصوت
هَذَا ما قد مرّقه الموت
الموت الموت الموت³⁵

والآن ننتقل إلى الشاعر أو الرائد الآخر للشعر الحر وهو بدر شاكر السياب.

بدر شاكر السياب و ولادته

وُلد بدر شاكر السياب في "بقيع" وهي قرية صغيرة من العراق بقرب مركز ابي الخصيب بلواء البصرة، سنة 1925م على القول الأرجح، وكان من أسرة عربية كريمة ذو ثقافة طيبة.

أهم مصادر ثقافته

نجد للشاعر بدر شاكر السياب مصادر كثيرة التي ارتشف واستنبط منها، فنسج شعره، ومن هذه المناهل: الفولكلور الشعبي، الكتب السماوية، التاريخ، الأدب العربي، دراسته للأدب الأجنبية، الأساطير والرموز، علاوة على هذا درس بدر شاكر السياب الثقافة الغربية، وقام ببعض الترجمات من الإنجليزية إلى اللغة العربية منها مثلاً "مختارات من الشعر العالمي" مما ساعده في فهم وفي إستنباط من الأدب الأوروبي الحديث.

آثاره الأدبية - الشعرية والنثرية**الأعمال الشعرية**

فجر السلام، ديوان الهدايا، أزهار وأساطير، المعبد الغريق، ديوان منزل الأفتان، ديوان شناشيل إبنة الجلي، ديوان قيثارة الريح، أعاصير، أنشودة المطر.

الأعمال النثرية

الأعمال النثرية لبدر شاكر السياب أكثر من عشرين، منها مثلاً: شجاعة في يوم قاطظ، الشعر العراقي الحديث منذ بداية القرن العشرين، كأس حلاق القرية، مقدمة ديوان أساطير، كنتُ شبيوعياً... الخ.³⁶ وله بعض الآثار الشعرية المخطوطة أيضاً، منها مثلاً: قلب آسيا، القيامة الصغرى، وبعض القصائد المترجمة عن الإنجليزية.

شاعرية بدر شاكر السياب

هناك آراء عديدة حول بداية شعره، ويبدو أنّ قصة الشعر قد بدأت عنده من طفولته، فأول أشعاره كتب باللهجة العراقية الدارجة وذلك في سنة 1932م، عندما كان عمره سبعة سنوات فقط. بعد ذلك عندما كان في السنة الخامسة من مدرسة الابتدائية ففي ذلك الوقت أيضاً كتب قصيدة بالفصحى على موضوع وطني، وهذه القصيدة كانت صحيحة من ناحية الوزن لكنّ مليئة بالأخطاء النحوية.³⁷

ويمكن لنا أن نقسم مراحل شاعريته إلى أربع مراحل كبيرة، وهي:

- المرحلة الرومانسية 1940 - 1950م
- المرحلة الواقعية 1950 - 1956م
- المرحلة التموزية - 1957 - 1960م
- المرحلة الذاتية المرضية 1961 - 1964م

الأوزان والقوافي والموسيقى في شعر السياب

بدر شاكر السياب كان شاعرًا ذو ثقافة علمية عربية عميقة، وعرفنا أنّه كان عالم اللغة العربية والآداب الأجنبية، ولذلك نهل أطيب الموضوعات من الآداب العربية وغير العربية، وعلى هذا يقول محمود العبطة بأنه نهل

من أطيب الكنوز العربية، منها مثلاً دواين أبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء المعري، والبحثري وغيرهم من الأعلام العربية³⁸، وهذا هو السبب بأننا نجد أنه يحافظ في شعره على أوزان العربية القديمة الخليلية، فكتب أكثر القصائد على منوال الشعر العمودي، وخاصةً في دواوينه الأولى، إلا "هل كان حباً"، لأنه كتب هذه القصيدة على منوال الشعر الحر. د. جليل كمال الدين يقول بأننا نجد في شعره غلبة للموسيقى الخارجية، بالإضافة إلى نوع من الونين الموسيقي الحاد ونغم القافية، ونجد في أشعاره وقصائده إرتفاع النغمة الخطابية والغنائية، والشيء الذي يجعل أشعاره متميزاً من الآخرين هي جزالة الألفاظ وقوة السبك.³⁹ ففي المرحلة الأولى كان شاعرًا مقلدًا إبتاعياً أكثر من خالقًا مبدعًا في شعره، لكنّ في المرحلة النهائية من حياته أنه مال إلى الشعر الحر، وتغيّر شخصيته بكامله، وكان بدايات هذا التغير من قصيدته المشهورة "هل كان حباً" من ديوانه أزهار ذابله.

ورغم بأنه إستعمل الأوزان الجديدة في الشعر الحر لكنّ هذا لا يعني أنه ينكر التراث القديم للأدب العربي، بل في الحقيقة هو كان حريصاً على التراث العربي وكان يؤمن به.

الموضوعات والإتجاهات الشعرية عند بدر شاكر السياب

إستعمل بدر شاكر السياب إتجاهات عديدة وأنماط مختلفة في شعره، وعلاوة على هذا فهو كان ينتمي إلى المدارس الأدبية المختلفة، وهو رائدًا من رواد التجديد للشعر العربي والمعاصر. وخلال شعره تكلم السياب عن موضوعات عديدة .

أما أهم إتجاهاته الشعرية فهي: الحلم، والغناء، والطبيعة، والحب، والغربة، والألم، والرومنطقية.

الشعر الحر عند بدر شاكر السياب

بدر شاكر السياب هو الشاعر الذي يحمل لواء ريادة للشعر الحر، و أول قصيدة على منوال الشعر الحر كانت "هل كان حباً" وهذه القصيدة قد نُشرت في ديوانه "أزهار ذابله" مؤرخة بتاريخ 1946/11/29، فهو كتب هذه القصيدة الحرة، والتي ما كانت حسب القواعد الخليلية، هذه القصيدة ما كانت مقيدة بعدد خاص من التفعيلات ولا بنظام محدد في توزيع السطور الشعرية. وفي ذيل الصفحة لهذه القصيدة كتب الشاعر هذه الكلمات: "في هذه القصيدة محاولة جديدة في الشعر المختلف الأوزان والقوافي، وهي كأغلب الشعر الغربي (وخاصةً الإنكليزي) تجمع بين بحر من البحور ومجزواته أي أن التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيت إلى آخر".⁴⁰

يقول بدر السياب في قصيدته "هل كان حباً":

"هل تُسمينَ الذي ألقى هياماً؟

أم جنوناً بالأمانِ؟ أم عَرَاماً؟

ما يكون الحبُّ؟ نوحاً وإبتسامة؟

أم خفوق الأضلعِ الحرّى، إذا حانَ التلاقي

بين عَيْنِيَا، فأطْرَقْتُ، فراراً باشتياقي

عَنْ سَمَاءٍ لَيْسَ تَسْقِينِي، إِذَا مَا؟

جئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا، إِلَّا أَوْأَمًا"41

نُلاحظُ أنّ هذه القصيدة كتبها بدر شاكر السياب حسب "نظام السطر" دون "نظام البيت" الشعري الذي كان معروفاً لدى الشعراء منذ العصر القاسم الجاهلي.

لا شك أنّ دور بدر شاكر السياب في بعث حركة الشعر الحر كبير جداً، وقبل مجيئه إلى هذا الجانب كان يكتب وينظم أشعاره على النمط العمودي، وفي المحاولة التجديدية جمع بين التجديد والإيقاع الموسيقي المتوازن الجديد، لكنّه لم يخالف القاعدة الخليلية القديمة إلا في بعض النقاط المحددة التي تعلّقت بقاعدته الحرة الشعرية.

استمرّ الشاعر بهذه الطريقة حتى إلى وفاته، وحتى خلال مرض الموت كتب ونظم بعض القصائد الحرة منها مثلاً "منزل الأفتان"، و"المعبد الغريق"، و"شناشيل إبنة الجلي" ... الخ

وهذه الحقيقة التاريخية الثابتة لا نستطيع أن ننكرها بأنّ كلّما يأتي كلام عن التجديد في الشعر العربي فسوف نجد صوت بدر شاكر السياب أكثر صاخراً في سماء الشعر العربي، ورغم أنّ كثيرًا من كبار الشعراء كانوا موجودين في زمنه منهم مثلاً وعلي محمود طه و إلياس أبي شبكة، والرصافي وغيرهم من الشعراء، لكنّ صوته للتجديد كان أغلب على أصوات الآخرين. ولذلك المؤرخون، والأدباء والنقاد يكتبون بكلّ إطمينان أنّ بدر شاكر السياب هو في الحقيقة منارةً لأجياله الحاضرة والقادمة.

بين نازك الملائكة - بدر السياب

يتشابه الشعاران في الجوانب العديدة ويختلفان في البعض، ومما لا شك أنّ هذا اللقاء والإختلاف يعود سببه إلى أسباب عديدة منها مثلاً الظروف الحياتية والبيئية والإجتماعية والثقافية لكل واحدٍ منهما. فولدت نازك الملائكة ببغداد سنة 1923م، في أسرة كريمة متوسطة الحال ومثقفة، وتعشق هذه الأسرة الأدب العربي، وإذا نظر إلى بدر شاكر السياب فهو ولد في 1925م، في بقية إحدى ضواحي جيكور، في أسرة قروية محافظة كريمة، لكنّه رأى الفقر والتمزق والشقاء لفترة طويلة من حياته، ولذلك نجد الخلاف بين موقف كل من الشعارين تجاه الإنسان والحياة والمجتمع. وإذا نظر إلى مرحلة التعليم لكلاهما فننظر بأن نازك الملائكة درست من دار المعلمين العلياء ببغداد، ولكنّ درس بدر شاكر السياب الآداب الغربية، ففي الوقت عندما كان بدر شاكر السياب متأثرًا بالأفكار السياسية المختلفة كانت نازك الملائكة شاعرة محافظة على أفكار العربية وتقاليد الأساسية بالرغم أنّها كانت مثقفة وعارفة بالثقافات والأفكار الغربية، لكنّ إذا عدنا إلى بداية طريقيهما للشعر خلال المرحلة الرومانسية فنجد أنّ كلاهما قد التقيا في التعبير عن الألم والحزن.

وعلاوة على هذا نجد الصفات المشتركة الكثيرة بين أشعار نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، مثلاً في رهافة الحس، وتدفق الشعور وسيطرة الحزن... الخ، رغم أنّ كلا الشعاران وجدا الظروف والبيئة الخاصة، ولكنّ قد

تكلّمًا في كثير من الأحيان عن القضايا المشتركة، وقد تكلّمًا عن التغيير الذي شهد الشعر العربي لأول مرة، فكتبنا القصائد العربية حسب الأسس والقواعد الجديدة المعروفة بشعر الحر، ولا شكّ في هذا أنّ هذه الإسهامات العظيمة للقصيدة العربية جعل هذين النجمين ساطعًا في السماء وخير رسالة للأجيال القادمة.

الخاتمة

البحث المعهود يتعلق بموضوع خاص في ادب العربي وهو الشعر الحر في هذا البحث أولاً قد ذكرت تعريف شعر الحر لغة واصطلاحاً وبدايته في ضوء اقوال الادباء والمحققين قديماً وحديثاً. كذلك مميزات الشعر الحر وامكانية بتصيل تامٍ ومع ذلك الامثلة والنماذج قد كتبت في هذا البحث.

الحواشي والهوامش

- 1 أحمد بزون، قصيدة النثر(بيروت: دار الفكر الجديد، 1996ء) ص: 24
- 2 حيات الله، أطروحة الشعر الحر في اللغة العربية واللغة الأردية(إسلام آباد: تحت إشراف الأستاذة الدكتورة نسرين طاهر ملك، من الجامعة الوطنية للغات الحديثة) ص: 26
- 3 عبد العزيز المقالح، من البيت إلى القصيدة(لبنان: دار الجيل، 1422هـ) ص: 233
- 4 مدحت الجيار، موسيقى الشعر العربي قضايا ومشكلات(مصر: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1995ء) ص: 139
- 5 محمد علي النجار، وحامد عبدالقادر، وأحمد حسن الزيات، و إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط(استانبول: دار الدعوة مؤسّسة ثقافية للتأليف والطباعة والتوزيع(سن)) 1: 484
- 6 قدامة بن جعفر، نقد الشعر(لبنان: دار الجيل، 1422هـ) ص: 11 و 15
- 7 عدنان قاسم، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر(القاهرة: المنشأة الشعبية، 1980ء) ص: 39-40
- 8 الدكتور شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي(القاهرة: دار المعارف، القاهرة، 1960ء) ص: 13
- 9 أدونيس، زمن الشعر(مطبع وسن اشاعت نامعلوم) ص: 312
- 10 نفس المرجع: 297
- 11 زمن الشعر: 297
- 12 الدكتور شوقي ضيف، الشعر وطوايحه الشعبية على مرّ العصور(لبنان: دار المعارف، 1991ء) ص: 251
- 13 قضايا الشعر المعاصر: 60
- 14 ديوان نازك الملائكة 2: 7
- 15 يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق(مطبع وسن اشاعت نامعلوم) ص: 184
- 16 زاهدة بروين، (طالبة ماجستير الفلسفة في اللغة العربية وآدابها)، الموسيقى في شعر نازك الملائكة: 25 (دراسة فنية) بحث لنيل شهادة ماجستير، تحت إشراف الدكتورة. زيتون بيجم، الأستاذة المشاركة بكلية اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد - باكستان، سنة 2011ء
- 17 قضايا الشعر المعاصر: 9

- 18 تقول نازك الملائكة بأني نظمت هذه القصيدة في يوم 27-10-1947، وبعد ذلك أُرسلتُها إلى بيروت فنشرتها مجلة العروبة في عددها الصادر في أول كانون الأول 1947 وكذلك علقتُ على هذه القصيدة في نفس العدد. هذه القصيدة كانت على موضوع الكوليرا، وقد عبّرت عن هذا المرض بطريقة الشعر الحر (بالتصرف).
- 19 محمد النويهي، قضية الشعر الجديد(بيروت: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر- 1971ء)ص: 371
- 20 مصطفى راشد، ديوان شعر العربي الحر، وتوجد النسخة الإلكترونية على الشبكة لهذا الديوان على العنوان التالي:
<https://books.google.com.pk/books?id=PEx0BQAAQBAJ&pg=PT19&lpg=PT19&dq>
- 21 قضايا الشعر المعاصر: 35
- 22 الأستاذ الدكتور روض نديم، آزاد نظم: تعارف، تاريخ اور صورتحال(إسلام آباد: مجلة دريافت(س-ن)ص: 381
- 23 كامل سلمان الجيوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002 م(بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2003 م - 1424 هـ) 6: 8
- 24 يغير ألوانه البحر، المطبعة آفاق الكتابة(مطبع و سن اشاعت نامعلوم)ص: 5
- 25 نفس المرجع: 6
- 26 تاريخ الشعر العربي الحديث: 677
- 27 د. بدوي طبانة، أدب المرأة العراقية(بيروت: دار الكتب العلمية 1424 هـ)ص: 90-96
- 28 أنظر ديوان نازك الملائكة 1: 6
- 29 تاريخ الشعر العربي الحديث: 677
- 30 النقد العربي الحديث: 677
- 31 قضايا الشعر العربي المعاصر: 126-136
- 32 نفس المرجع: 23
- 33 قضايا الشعر العربي المعاصر: 71-72
- 34 انظر للتفصيل، نفس المرجع: 12، وكذلك يغير الوانه البحر: 15
- 35 هذا جزءاً من تلك القصيدة أما القصيدة الكاملة فتراها في ديوان نازك الملائكة، لنازك الملائكة 2: 138
- 36 الدكتور سالم المعوش، بدر شاكر السياب(بيروت: دار الكتب العلمية 1424 هـ)ص: 265 - 266
- 37 نفس المرجع: 49
- 38 محمود العبطة، بدر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق(بيروت: دار الكتب العلمية، 2003 م)ص: 82
- 39 دكتور جليل كمال الدين، الشعر العربي وروح العصر(بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1424 هـ)ص: 298
- 40 بدر شاكر السياب، هل كان حبا؟.. أزهار و أساطير(لبنان: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2003 م)ص: 101
- 41 هذا فقط جزءاً من قصيدته الطويلة، أما القصيدة الكاملة فأنظر في ديوانه، المرجع نفسه